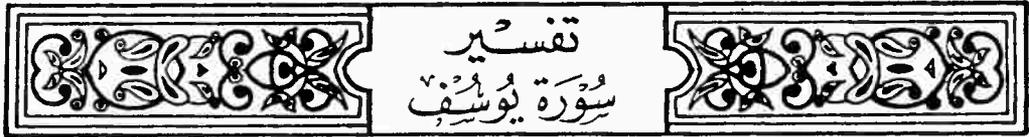


﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ .

﴿وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده، وجعل كلمته هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ .

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه، فإنه كافٍ من توكل عليه، وأناب إليه. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.



روى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا، لموافقها ما عندهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿١﴾ .

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات، وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فأكمل من كل الوجوه، ولهذا قال:

﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلِيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلِيكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن. روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جنتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو يباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني». وفي رواية قال لي رسول الله: «ما هذا في يدك يا عمر؟» قلت: كتاب نسخته ليزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلاة جامعة، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم ﷺ؟ السلاح السلاح، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أنيتكم بها بيضاء نقية، فلا تهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون»، قال عمر فقلت: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً. ثم نزل رسول الله ﷺ.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (٤).

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام. روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» انفرد بإخراجه البخاري. وفي البخاري عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، بن نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه ﴿وَحَرُّوا لَهُ سَجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100].

﴿قَالَ يَا أَبَتِ لِمَ تَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٥).

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا تعبيرها خضوع إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له سجداً إجلالاً واحتراماً وإكراماً،

فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له، ولهذا قال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليقل عن يساره ثلاثاً، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لا تضره». وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنة: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت»، ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني تعبير الرؤيا ﴿وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أي يارسالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده، وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾﴾ .

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع اخوته آيات، أي عبر ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ .

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة؟ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبه إياهما أكثر منا. واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف. وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ...﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ فأضرموا التوبة قبل الذنب.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا نَفْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو أكبرهم: «روبيل» أو يهوذا، أو شمعون الصفا ﴿لَا نَفْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إتمامه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر، والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة «روبيل» فيه، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب، وهو أسفله. قال قتادة: هي بئر في بيت المقدس ﴿يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحببيه على كبر سنه، ورقة عظمه، مع مكانه من الله أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته، وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً. رواه ابن أبي حاتم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ .

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير «روبيل» جاؤوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا ما بالك ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ أي ابعثه معنا ﴿غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ يسعى وينشط ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أي يشق عليّ مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفرط محبته له، لما يتوسم فيه من الخير العظيم، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق. صلوات الله وسلامه عليه. وقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يقولون: وأخشى أن تشغلوا برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله، وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة:

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ (١٤).

﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ﴾ (١٤) يقولون: لئن عدا عليه الذنب فأكله من بيننا، ونحن جماعة: إنا إذا لهالكون عاجزون.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥).

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيهم بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجُبِّ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهره إكراماً له وبسطاً، وشرحاً لصدوره وإدخالاً للسرور عليه، فيقال: إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه، وثبتاً له إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم، ويعليك، ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بإيحاء الله إليه.

﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (١٦) ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (١٧).

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف. وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نترامى ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أي ثيابنا وأمتعنا ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾ وهو الذي قد كان جزع منه، وحذر عليه. وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ تطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا، والحالة هذه لو كنا صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذنب. فأكله الذنب، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا.

﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (١٨).

﴿وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذنب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلماذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن

كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقت عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال. وعن ابن عباس: لو أكله السبع لخرق القميص. والصبر الجميل: الذي لا جزع فيه، وفي الحديث: «هو صبر لا شكوى فيه». قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاث من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ اللَّهِ عَلَيْهِٰ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (١٩).

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الحب حين ألقاه إخوته في ذلك الحب وحيداً فريداً، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش. قال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون: ماذا يصنع، وما يصنع به؟ فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم، وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال: ﴿يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ﴾ أي أسره الواردون من بقية السيارة، وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِٰ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ما قدره وقضاه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: 54] وفي هذا تعريض لرسوله محمد عليه السلام، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأملئ لهم، ثم أجعل لك العاقبة، والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم على إخوته.

﴿وَشَرَوْهُ بِشَمْنٍ بِخَيْرِ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ (٢٠).
﴿وَشَرَّوهُ بِشَمْنٍ بِخَيْرِ دَرَاهِمٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ يقول تعالى: وباعه إخوته بشمن قليل. والبخنس هو النقص، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: 13] أي اعتاض عنه إخوته بشمن دون قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين، أي ليس لهم رغبة فيه، بل، لو سألوه بلا شيء لأجابوا.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ أَمِينٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١).

يخبر تعالى بالطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح، فقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها، واسمه اطفير بن روحيب، وكان على خزائن

مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، اسم امرأته راعيل، أو زليخا. عن ابن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوِيَّ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها: ﴿يَتَابِتِ اسْتَعْرَاجِي﴾ وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر ﴿مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ هو تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي فعال لما يشاء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يدرون حكمته في خلقه وتلفظه وفعله لما يريد.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي استكمل عقله، وتم خلقه ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقسام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي إنه كان محسناً في عمله، عاملاً بطاعة الله تعالى. وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده، فقيل: ثلاث وثلاثون سنة، أو بضع وثلاثون سنة، أو عشرون سنة، أو أربعون سنة، أو خمس وعشرون سنة، أو ثلاثون سنة، أو ثمان عشرة سنة، أو هو بلوغ الحلم.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣).

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته عن نفسه ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي، أي منزلي، وأحسن إليّ، فلا أقبله بالفاحشة في أهله ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ و ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ معناه أنها تدعوه إلى نفسها، أي هلم لك.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَاهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِضِينَ﴾ (٢٤).

قيل: المراد بهمه خطرات حديث النفس، وفي الحديث: «إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرأتي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها». وقيل: هم بضربها، وقيل: تمنأها زوجة. وأما البرهان فقيل: رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه بفمه: وقيل: فضرب في صدر يوسف. قال ابن جرير: والصواب أنه رأى آية من آيات الله تزرجه عما كان هم به. ولا حجة قاطعة على تعيين شيء. ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه ما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِضِينَ﴾ أي من المجتهدين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ .

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب، يوسف هارب، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته في أثناء ذلك، فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قدأ فظيعاً، يقال إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً، وهي في إثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أي فاحشة ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ أن يحبس ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً .

﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ .

فعند ذلك انتصر يوسف ﷺ بالحق، وتبرأ مما رمته به من الخيانة، ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أي من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته بي صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ كان صبياً في المهد. وفي الحديث: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، عن ابن عباس أنه قال: «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم» .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أي إن هذا البهت واللطف الذي لطخت عرض هذا الشاب من جملة كيدكن ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ .

﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي اضرب عن هذا صفحاً، أي فلا تذكره لأحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلاً، أو أنه عذرها، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها: استغفري لذنبك، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرون على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعين ذلك عليها ﴿ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو غلافه . ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في صنيعها هذا من حبه فتاها، ومرادتها إياه عن نفسه .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم: بقولهن: ذهب الحب بها، وقيل: بلغهن حسن يوسف فأحببن أنه يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا ﴾ هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ وكان هذا مكيدة منها، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج ﴿ وَرَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي أعظمته أي أعظم شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهم حزنن أيديهن بها ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا . . . ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه، ولا قريباً منه، فإنه ﷺ كان قد أعطي شطر الحسن، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: مر ﷺ بيوسف في السماء الثالثة فقال: «إذا هو قد أعطي شطر الحسن» ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ معاذ الله .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِينَ لَمْتُنِّي فِيهِ ﴾ تقول هذا معذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وجماله ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ ﴾ أي فامتنع، ثم قالت تتوعده ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف ﷺ من شرهن وكيدهن .

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ

الْبَاهِلِينَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أي من الفاحشة ﴿وَلَا إِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي وإن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان، وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ اللَّيْلِيِّينَ﴾.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ فَصَرَفَ عَنْهُمْ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٤).

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وذلك أن يوسف عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرئاسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله، ورجاء ثوابه. ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق في المسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (٢٥).

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته، وكانهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما نسب إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك خرج، وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه. وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لثلاث يشيع ما كان منها في حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٦).

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ...﴾ قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه. ثم إنهما رأيا مناماً، فرأى الساقى أنه يعصر خمراً يعني عنباً، ورأى الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ﴿نَبَأْنَا بِتَأْوِيلِهِ...﴾.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٧).

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما رأيا في منامهما من حلم، فإنه عارف بتفسيره، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ ثم قال: وهذا إنما هو تعليم الله إياي، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً، ولا عقاباً في المعاد.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٨).

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ...﴾ يقول: هجرت طريق الشرك والكفر، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد. ﴿مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا التوحيد، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعاءة إلى ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28].

﴿يَصَلِحِي السِّجْنَ ءَأَزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩).

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة والدعاء لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال: ﴿ءَأَزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَتَيِّتُمْوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٠).

ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم، وتسمية من تلقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشية والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه. ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلْقَيْتُمْ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يجبه ويرضاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي فلماذا كان أكثرهم مشركين ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظُّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ .

يقول لهما: ﴿يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعنيه لثلا يحزنه ذاك ولهذا أبهم في قوله: ﴿وَأَمَا الْآخَرَ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الظُّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ .

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبَّىٰ فِي السِّجْنِ بِضَعِ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ .

ولما ظن يوسف ﷺ أن الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر لثلا يشعره أنه مصلوب، قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان ذلك من جملة مكاييد الشيطان لثلا يطلع نبي الله من السجن ﴿فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِيحَىٰ أَرَأَيْتَ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّؤْيَا نَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

هذه الرزيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف ﷺ من السجن معزراً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا فهالته، وتعجب من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها:

﴿قَالُوا أَضَعَفْتُ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿أَضَعَفْتُ أَحْلَامٌ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتين اللذين كانا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما أوصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك:

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ .

تذكر بعد أمة أي بعد مدة، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُوسَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزرورع، وهن السنبلات الخضرة، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُونَ﴾ أي مهما استغلتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله، ليكون أبقى له، وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفوا فيه، لتنفقوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات. وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السماء، لأن سني الجذب يؤكل فيها ما جمعه من سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم أنهم لا ينتبن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

ثم بشرهم بعد الجذب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس، أي يأتيهم الغيث، وهو المطر، وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عاداتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً. وعن ابن عباس: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ يحلبون.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِدِهْنٍ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه فقال: ﴿أَتُؤْتِنِي بِدِهْنٍ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضره، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً فقال: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بَالَ النَّسْوَةِ...﴾ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتنبيه على فضله وشرفه، وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند والصحيحين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من

إبراهيم إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260] ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْ حَشَى لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ .
 ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ هذا إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن، وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن: ﴿مَا خَطْبُكُمْ﴾ أي ما شأنكن وخبركن ﴿إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿قُلْ حَشَى لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك: حاشا لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ أي تبين الحق وظهر وبرز ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: 26].

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلماذا اعترفت ليعلم أنني بريئة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ .

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ .
 ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام، وقد حكاها الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله، فأفرده في تصنيف على حدة. وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف. يقول: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿وَالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي أَي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته ﴿وَالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وهذا القول الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن حاتم سواه، والقول الأول أظهر وأقوى، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف ﷺ عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُكَ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال: ﴿أَتُؤْتِنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُكَ لِنَفْسِي﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتني ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله

وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكما قال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أي إنك عندنا بقيت ذا مكانة وأمانة.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ (٥٥).

فقال يوسف ﷺ ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة وذكر أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أي خازن أمين ﴿عَلِيمٌ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فيه مصالح الناس.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦).

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر ﴿يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ أي يتصرف فيها كيف يشاء ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد.

﴿وَلَا جُرْ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧).

﴿وَلَا جُرْ إِلَّا فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧) يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنيبه يوسف ﷺ في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كقوله تعالى في حق سليمان: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٦) وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَكُلْفًا وَحَسَنَ مَتَابٍ ﴿١٤﴾ [ص: 39 - 40] والغرض أن يوسف ﷺ ولاءه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر فكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف ﷺ. قاله مجاهد.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٨).

لما باشر يوسف الوزارة بمصر ومضت السبع سنين المخصصة، ثم تلتها السبع سنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكما لها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب ﷺ وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة، وكان ﷺ لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، وكان رحمة من الله على أهل مصر. والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الطعام للناس بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعترضون بها طعاماً وركبوا عشرة. واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف، وكان أحبّ ولده إليه بعد يوسف، فلما دخلوا عليه وهو جالس في أبيته

ورثاسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي لا يعرفونه لأنهم فارقه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه فلماذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم، وقد شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: يا أيها العزيز إنا قدمنا للميرة. قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية، وكان أحبنا إلى أبيه وبقية شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتَّوْنِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ إِلَّا تَرَوْتِ أَتِي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ (٥٩).

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أي أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: اتتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتكم لأعلم صدقكم فيما ذكرتكم ﴿إِلَّا تَرَوْتِ أَتِي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال:

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (٦٠).

أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾.

﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ (٦١).

أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٢).

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ﴾ أي غلماناه ﴿اجْعَلُوا بِضَعْتَهُمْ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتِلْ وَإِنَّا لَكُمُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣).

يقول تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا آخانا «بنامين» لا نكتل، فأرسله معنا نكتل ﴿وَإِنَّا لَكُمُ لَحَافِظُونَ﴾ أي لا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٦٣) [يوسف: 12] ولهذا قال لهم:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۗ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغييونه عني، وتحولون بيني وبينه؟ ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ، ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا نَبِغِي هَذِهِ ۗ بِضَاعَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٥﴾﴾ .

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر يوسف فتياته بوضعها في رحالهم فلما وجدوها في متاعهم ﴿قَالُوا يَا بَنَاتَنَا مَا نَبِغِي هَذِهِ﴾ أي ماذا نريد؟ ﴿بِضَاعَنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ ما نبغي وراء هذا؟ إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وذلك أن يوسف ﷺ كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهما ما يعدل هذا .

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ ۗ وَإِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ ۗ وَإِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم، ولا تقدرؤن على تخليصه ﴿فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ وإنما نفعل ذلك لأنه لم يجد بدأ من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۗ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب ﷺ : إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهما «بنيامين» إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشي عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ .
 قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي لذو عمل بعلمه، أو لذو علم لتعليمنا إياه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف، ومعهم أخوه شقيقه «بنيامين»، وأدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطف والاحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه: وقال له: لا تبتس، أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقى عنده معزراً مكرماً معظماً.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .

لما جهزهم وحمل أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة، وقيل: من ذهب كان يشرب فيه، ويكيل للناس فيه من عزة الطعام. عن ابن عباس: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع «بنيامين» من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ .

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾﴾ .
 فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ .

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ .
 ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ أي صاعه الذي يكيل فيه ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الحعالة ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ .
 لم اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنا ﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤).

فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ (٧٥).

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ...﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٦).

ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتشها قبله تورية ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم، والتزامهم، والزاماً لهم بما يعتقدونه، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر. وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي ليس عالم إلا فوقة عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع «بنيامين» ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون يوسف عليه السلام، وقد كان يوسف سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ﴾ يعني الكلمة التي بعدها، وهي قوله ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي تذكرون، قال هذا في نفسه، ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وله شواهد في القرآن والحديث واللغة في منورها وأخبارها وأشعارها، ومنه:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزي سنمار

﴿قَالُوا يَا أَبَتِاهُ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

المُحْسِنِينَ﴾ (٧٨).

لما تعين أخذ «بنيامين» وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يعنون: وهو يحبه حباً شديداً، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ أي بدله، يكون عوضاً عنه ﴿إِنَّا نُرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا بِهِ إِنَّآ إِذَا لَطَلِمُوا﴾ (٧٩).

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا بِهِ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوا﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم، أي بمذنب وجان.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨٠).

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يتسوا من تخلص أخيه «بنيامين» الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خَلَصُوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نَجِيًّا﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ وهو «روبييل» وقيل: «يهودا» وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك، مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي لن أفرق هذه البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ (٨١).

ثم أمرهم أن يخبروا آباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم. ﴿يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ﴾. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي ما علمنا أن ابنك سرق، إنما سألناه ما جزاء السارق؟.

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (٨٢).

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ قيل: المراد مصر، وقيل: غيرها ﴿وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي التي رافقناها عن صدقتنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٢).

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، وقال بعض الناس: لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف، وأخاه بنيامين وروبير الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، ولهذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ أي العليم بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، وقضائه وقدره.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤).

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ﴾ أي أعرض عن بنيه، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول فقد جدد له حزن الابنين الحزن الدفين على يوسف. عن سعيد بن جبير أنه قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع؛ ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَيُّضَتَ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق، وقال الضحاك: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي كئيب حزين.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (٨٥).

﴿تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ أي ضعيف القوة ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقولون: إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦).

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَ إِلَى اللَّهِ﴾ أي أجابهم عما قالوا بهذا أي همي وما أنا فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أرجو منه كل خير، أو أن رؤيا يوسف صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها.

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَبُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٧).

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعملون أخبار يوسف وأخيه «بنيامين» والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، ونهضهم وبشرهم، وأمرهم أن لا يياسوا من روح الله، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نختاره، وهو ثمن قليل. قال الضحاك: مزجاة: كاسدة لا تنفق. وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء. ﴿فَاؤْفَ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك. قال ابن جريج: وتصدق علينا برد أحنينا إلينا. سئل مجاهد هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق علي؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يتبغي الثواب.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَؤُسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لم ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضييق وقلة الطعام وعموم الجذب، وتذكر أباه، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع التاج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَؤُسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ركبتموه، كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، ثم قرأ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَاشَرُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: 119] والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم، ولكن لما ضاق لحال، واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق. فعند ذلك قالوا:

﴿قَالُوا أَيْ تَنْكَ لَأَنْتَ يَؤُسُفُ قَالَ أَنَا يَؤُسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿أَيْ تَنْكَ لَأَنْتَ يَؤُسُفُ﴾ والاستفهام يدل على الاستعظام، أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر، وهم لا يعرفونه، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه. فلماذا قالوا على سبيل التعجب: ﴿أَيْ تَنْكَ لَأَنْتَ يَؤُسُفُ قَالَ أَنَا يَؤُسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ وقوله: ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي بجمعه بينا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ عَآثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لِلَّهِ لَقَدْ عَآثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا...﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق، والسعة والملك، والتصرف والنبوة أيضاً على قول من يجعلهم من الأنبياء، وأقروا له بأنهم أسأؤوا إليه، وأخطؤوا في حقه.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٩٢).

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ يقول: أي لا تأنيب عليكم، ولا عتب عليكم اليوم، ولا أعيذ عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اعتذروا إلى يوسف فقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ يقول: لا أذكر لكم ذنبكم، ولا تأنيب عليكم عندي فيما صنعتم ﴿الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٣).
يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي بجميع بني يعقوب.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (٩٤).

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أي خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي تنسبوني إلى الفند والكبير. عن ابن عباس يقول: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ لما خرجت العير حاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ قال: فوجد ريحه عن مسيرة ثمانية أيام. وقيل: ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تسفهون، وقيل: تهرمون.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ (٩٥).

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ لفي خطئك القديم أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم، ولا لنبى الله صلى الله عليه وسلم.

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦).

﴿الْبَشِيرُ﴾ البريد. قال مجاهد والسدي: كان يهوذا بن يعقوب. قال السدي: إنما جاء لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً وقال لنبيه عند ذلك: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي وقلت لكم ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

الرَّحِيمِ ﴿١١١﴾ أي من تاب تاب عليه. قال ابن مسعود: أرجأهم إلى وقت السحر. روى ابن جرير عن محارب بن دثار قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي، قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك فقال: إن يعقوب أصر بنيه إلى السحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَفِيرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقدمه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لاختوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه. وقد أشكل قوله: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام: ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وأوى إليه أبويه ورفعهما على العرش، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف أوى إليه أبويه لما تلقاهم، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وفي هذا نظر أيضاً لأن الإيواء إنما يكون في المنزل كقوله: ﴿ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69] وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط. ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدة ببركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبع سنين كسبع يوسف» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه دعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه صلى الله عليه وسلم.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ يعني السرير أي أجلسهما معه على سريريه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ﴾ أي التي قصها على أبيه من قبل ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4] وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم، إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام. فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه

وتعالى. وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال: «ما هذا يا معاذ؟» فقال: «إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها». وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت». والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال: ﴿يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي صحيحة صدقاً، يذكر نعم الله عليه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي البادية، فقد كانوا أهل بادية وماشية ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ أي إذا أراد أمراً قبض له أسباباً وقدره ويسره ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بمصالح عباده ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره وما يريد. قال أبو عثمان النهدي عن سليمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ .

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه، وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، وأن يلحقه بال صالحين، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهذا دعاء يحتمل أن يكون قاله عند احتضاره كما في الصحيحين: «اللهم الرفيق الأعلى» ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام، واللحاق بال صالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأل ذلك منجزاً، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان سائغاً في ملتهم، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا، ففي الصحيحين: «لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان ولا بد متمنياً الموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي». وأما إذا كانت فتنة الدين فيجوز سؤال الموت كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرداهم فرعون عن دينهم، وتهدهم بالقتل قالوا: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126] وقالت مريم ﴿بَلِّغْنِي مِنْ رَبِّي إِنَّنِي مِنَ الْوَالِحِينَ﴾ [مريم: 23] وفي الحديث المرفوع «اثنان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير للمؤمنين من الفتن، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب» ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة: «اللهم خذني إليك»، فقد سئمتهم وسئمتوني. وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة، وجرى له مع أمير خراسان ما جرى: اللهم توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك».

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ .
 ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نعلمك به لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك .

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ .

ومع أن الله قد أطلعه على أنباء مما قد سبق فيه عبرة للناس، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ .

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣٩﴾ .

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي من جعالة، ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً للخلق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١٤٠﴾ .

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع السخلوقات، المتفرد بالبقاء والدوام والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك .

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ .

قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات والأرض، ومن خلق الجبال؟ قاوا: الله، وهم مشركون به . وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك . وقال الحسن البصري: ذلك المنافق، يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك، وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه، أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ وفي الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وحسنه . وفي الحديث: «الشرك أخفى في أمتي من ديبب النمل على الصفا» فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله

وكثيره، وصغيره وكبيره؟» قال: بلى، يا رسول الله، قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفر لما لا أعلم».

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٧) .
 ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ...﴾ أي أفامن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخَيْفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٧) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (١٨) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٧) [النحل: 45-47].

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٨) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن أمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي طريقته ومسلكه وستته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عدل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٩) .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ...﴾ فإذا استمعوا خير ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين، ونجى المؤمنين ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة، وهي خير لهم من الدنيا بكثير.

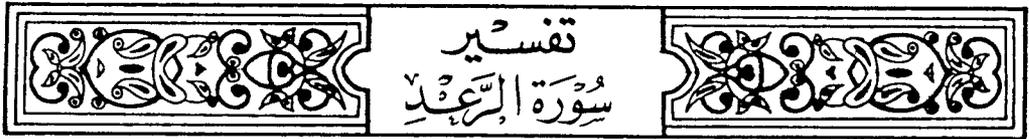
﴿حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٠) .

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال، وانتظار

الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أي من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ﴿وَوَطَّنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ أي وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهي العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويختلق ﴿وَلَٰكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمنجيات والنهي عن الحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور الجليلة، وعن الغيوب المستقبلية، والإخبار عن الرب بالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿السرّ يلك آيات الكتب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾. أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وكل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب. ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتب﴾ أي هذه آيات القرآن ﴿والذى أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: 103] أي مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن من أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم أسوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسعى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلىقائه ربكم تؤمنون﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته، وعظيم سلطانه أنه الذي ياذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل ياذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تال، ولا يدرك مداها ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ [الحج: 65] وقوله: ﴿ترونها﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ﴿ثم أسوى على العرش﴾